﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: 84]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إعمارُ الظّالمين، وكسبهم وبناؤهم الشّامخ، لا يدفعُ من عذاب الله شيئًا

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إهلاكِهم بالصّيحة، أتبعه بالإخبار عن أنَّ بيوتَهم التي في الجبال وقوّتهم ومنعتهم لم تدفع عنهم العذاب، ولم تنفعهم شيئًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: أَصْلُ الغِنَى يَدُلُّ على الكِفايَةِ والسَّعَةِ وكَثْرَةِ المالِ، يُقال: غَنيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنيٌّ: إذا كان موسعًا كَثيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[1]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ لِلْغَيْرِ، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك، والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايَةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنيَ عنه فهو غانٍ[2]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرُ الله إذا جاء لا يردّه كثرة جنودٍ، ولا قوَّة أنصارٍ، ولا غزارة أموالٍ

يقول اللّه تعالى: فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة، مع كثرة العدَد والعُدد، بل خرّوا في ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾:

خيبةُ الكافرين، بعدم إغناءِ إعمارِهم من عذاب الله

لمّا كان قوم ثمود يظنّون أنَّ ما كانوا يفعلونَه؛ من بناء البيوت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (غني).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

في الجبال وجمع الأموالِ وغيرِها، يدفع عنهم العذاب الذي وقع بالأقوام السابقين، أفادت الفاء هنا ترتيبَ عدمِ إغناء ما كانوا يكسبون في وقت نزول العذابِ حسبما كانوا يرجونه، ففيه إشعارٌ بخيبتِهم وخذلانِهم، فالفاء لترتيبِ عدمِ الإغناء الخاصِّ بوقتٍ ما كانوا يتوقّعونه لا عدمِ الإغناءِ المطلق فإنَّه أمرٌ مستمرٌّ[1].

دلالة استعمال أداة النَّفي (ما):

انتهاء كلِّ ما عمّره الظّالمون وما بنوه، بمجرّد وقوعِ العذاب

اختير التّعبير عن نفي الماضي بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ دون (لم يغنِ)؛ لأنَّ (ما) آكد في النّفي من (لم)، والمقام يقتضيه، وهي تقع ردًا على كلامٍ حاصلٍ أو ما نُزّل هذه المنزلة من اعتقادٍ خاطئ أو ظنٍّ فاسدٍ، فعبِّر بـ﴿فَمَآ﴾ لأنَّ قوم ثمود كانوا يعتقدون أنَّ ما يكسبونه من بناء البيوت في الجبال وجمع الأموال والعدد سيغنيهم من عذاب اللّه، كما أنَّ التَّعبير بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ يفيد انتفاءَ إغناءِ ما كسبوه وجمعوه، وانقضاءَه في وقتِ وقوع الصّيحة[2].

سرُّ التّعبير بالإغناء دون النَّفع، في الآية الكريمة:

كلُّ مالٍ لا ينفعُ عندَ الله تعالى، ولا يردُّ العذابَ، فلا غنىً فيه

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، عُبِّرَ بنفي الإغناء للإشعار بأنَّ كلَّ القنيّات التي كسبوها منَ الأموالِ وغيرِها ليست بغنى، وقد كانوا يظنّون أنَّهم قد اغتنوا بما كسبوا، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ الغنى هو ما يكون منه أمرانِ: الانتفاع ودفعُ الضّرِّ والبلاء، فكلُّ مالٍ لا نفعَ منه عندَ اللّه تعالى، ولا يردُّ العذابَ ولا يدفعُه لا غنىً فيه.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

تحقيق المعنى وتخصيصه ومراعاة الفواصل

قُدِّمَ ﴿عَنۡهُم﴾ على الفاعل ﴿مَّا﴾ لتحقيقِ نفي إغناء الأموال ونحت البيوت عنهم ولِتخصيصِه بهم وقتَ أخذِهم بالصّيحة، ولمّا كان الذي يكسبونه ليسَ بمغنٍ عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/88.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/195.

كان التّخصيص بوقتِ أخذهِم بالصّيحة إضافيًّا للمبالغة، كما أنَّه لو قيل: (فما أغنى ما كانوا يكسبون عنهم) ضعف تأليف الكلامِ وانفرطت بلاغتُه وانخرمت الفاصلة القرآنيَّة، وتناسب رؤوس الآي لا يقصدُ لوحدِه في القرآن المجيد.

دلالة ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه

لّما كانت ﴿مَّا﴾ اسمًا موصولًا[1] وكانت على معنى العمومِ، أفادت استغراقَ كلِّ ما كانوا يكسبون، ممّا كانوا يرجون منه دفعَ العذاب عنهم، وممّا لم يكن في حسبانِهم أصلًا، ليفيد أنَّهم لم ينتفعوا بكلِّ ما كانوا يكسبون، فما أغنى عنهم ما كانوا ينحتون وما عملوا منَ الأصنام، وما مُتِّعوا وأُنعموا به في هذه الدنيا[2]، وفي التّعبير بلفظ العموم إشعارٌ بأنَّه لم يأتِ منهم أيُّ عملٍ صالح، ولم يكسبوا إلّا الأعمال القبيحة، أو أنَّ تكذيب الرّسل يمحو كلَّ عملٍ صالحٍ، فالإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه.

دلالة صلةِ الموصول، في سياق الآية الكريمة:

كسبُ الكافرين في الدّنيا، سببٌ في غفلتِهم عن الإيمانِ والعمل به

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، لّما جاء الكلام على نفي إغنائِهم ما كانوا يكسبون من نزول العذاب بهم، أفاد أنَّهم كانوا يتوقَّعون أنَّ الذي كانوا يكسبونه من نحت الجبال وجمع الأموال وغيرِهما يغنيهم من عذاب اللّه ومن الأذى والضّرِّ الذي أصاب الأقوام المكذبين السّابقين، لتفيد صلة الموصول بيان سبب الحكم المنفيِّ وليس بيانَ سببِ نفي الحكم، أي: إنَّ كسبَهم واجتهادَهم في البناء وغيرِه كان سببًا في اعتقادِهم أنَّهم آمنون من نزول العذاب بهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/492.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/459.

دلالةُ ذكر ﴿كَانُواْ﴾، في سياق الآية الكريمة:

رغم الكسب وغزارة الأموال والحصون، فإنّها لم تغن عنهم شيئًا

تفيد ﴿كَانُواْ﴾ أنَّ كسبَهم وعملَهم كان مستمرًّا، وأنَّ الكسبَ كان من عادتِهم، حتَّى صار طبعًا لهم، للإشعار بكثرة كسبِهم وجمعِهم الأموال ونحتِهم البيوت في الجبال، ولهذا لم يقل: فما أغنى عنهم كسبُهم، أو الذي يكسبون.

سرُّ التَّعبير بالكسبِ دون البناءِ أو النَّحتِ:

دقَّةُ اختيار اللّفظ المناسب من بلاغة القرآن

عُبِّرَ بلفظ الكسبِ ليفيدَ كلَّ ما يوصف بالكسبِ من القولِ والعمل، وما كانوا يعتقدونه في قلوبهم، فيشمل ما قالوه لنبيِّهم وتكذيبَهم له، ونحتَهم الجبال، وبناءهم البيوت، وجمعَهم الأموال والعدد، وما كانوا يَسْتَغِلّونَهُ مِن زُروعِهِم وثِمارِهِمُ الَّتي ضَنّوا بمائِها عَنِ النّاقَةِ حَتَّى عَقَروها لِئَلّا تُضَيِّقَ عَلَيْهِم في المياه، فما دَفَعَتْ عَنْهُم تِلْكَ الأموالُ ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك[1]، ولو عُبِّر بالبناء أو النّحت لكان المعنى قاصرًا لا يفي بالمقامِ.

بلاغة الاستعارة التّهكّمية في سياق الآية:

أسلوب التهكّم في الجملة، احتقار وتهوين ممّن توهّم القوّة

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: لمّا كان الكسب يقال لما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال استعير لفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ هنا على سبيل التّهكّم بما كانوا يعتقدون أنّ فيه منفعةً لهم ودفعًا للبلاء عنهم[2].

دلالة التّعبير بصيغة المضارعِ، في الآية الكريمة:

إتقانُ الكسبِ من دون إيمانٍ بالله ورسلِه، لا يغني من الله شيئًا

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وفيه عُبِّرَ بصيغة المضارع للإشعار باستمرارِهم على طلبِ الكسبِ وابتغائه وتجدّدِه في معاشِهم وحياتِهم، وأنَّهم كانوا يتقنونَ الكسبَ، فلم يغنِ عنهم منَ اللّه شيئًا، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بمعنى يَصْنَعونَ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/486.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/88، والآلوسي، روح المعاني: 7/320.

أي: يصنعونَ البُيوتُ الَّتي عُنوا بِتَحْصينِها وتَحْسينِها كَما دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ كانوا، فتكون صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ دالَّةً عَلَى التَّكَرُّرِ والتَّجَدُّدِ المُكَنَّى بِهِ عَنْ إتْقانِ الصَّنْعَة، وبِذَلِكَ كانَ مَوْقِعُ المَوْصولِ والصِّلَةِ أبْلَغَ مِنْ مَوْقِعِ لَفْظِ (بُيوتِهِم) مَثَلًا، لِيَدُلَّ عَلَى أنَّ الَّذي لَم يُغْنِ عَنْهُم شَيْءٌ مُتَّخَذٌ لِلإغْناءِ ومِنْ شَأْنه ذَلِك[1].

فائدةُ حذف المفعول في جملة: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

رعاية الفاصلة، ضمان لتناسب رؤوس الآي

أفاد حذف المفعول العائد على الاسم الموصول ﴿مَّا﴾ العموم؛ ليفيد أنَّهم كانوا يطلبون كلَّ أنواعِ الكسب الذي كان في متناول أيديهم، والتَّقدير ما كانوا يكسبونه، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلة لتتناسب رؤوس الآيات.

بلاغة الكناية في الآية الحكيمة:

بيان تصوير حالة الخيبة والخذلان، للظّالمين في ذلك الآن

لمّا قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، أفادَ بلازمه أنَّ الصّيحةَ أهلكتهم، وأنَّهم خَرّوا جاثِمينَ ولم ينفلت منهم أحدٌ، وفي الكناية تصويرٌ لحالة الخيبة والخذلانِ للظّالمين.

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

دعوة القرآن إلى الاعتبار، بأحوالِ الأمم الماضية

في الآية تعريض بأهل مكّة وبمن يكذّب رسل الله ويعرض عن الدّين القويم، وتنبيه لهم، فكأنَّه يقول لهم: كانوا أشدَّ منكم قوَّة وأكثرَ أموالًا، فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئًا، فكيف حالكم وماذا أنتم فاعلون؟[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216.